النباتات وإسهاماتها العِلاجية والعِطرية في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس ما بين 4-6هـ/10-12م (2): في الأندلس

شعيب خنوف

أستاذ بقسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي سي الحواس بريكة، الجزائر

choayb.khenouf@cu-barika.dz

مقدمة

يهدف هذا المقال بجزأيه إلى التعرف على أبرز نباتات المغرب الإسلامي والأندلس والاستفادة منها في التطبّب والتطيّب، في محاولة لتحديد أوصاف وأنواع النباتات والأشجار في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وكيفية الاستفادة منها ومجالات استخدامها. هل كان الدواء أو الطيب موجودًا فيها دون إعداد، أم كان يتم تحضيره بطبخه مع مواد أخرى؟ وهل كانت الاستفادة تتم من جذور أو سيقان النباتات والأشجار، أم من أغصانها وأوراقها، أو باستخراج صمغها أو طبخها لصنع الدواء أو للتطيّب بها؟

يدرس الجزء الثاني من المقال موضوع النباتات وإسهاماتها في التطبّب والتطيّب في بلاد الأندلس ما بين القرنين 4-6هـ/10-12م، من خلال محاولة الاطلاع على أبرز تلك النباتات وفوائدها في معالجة عدد كبير من الأمراض المنتشرة في تلك الحقبة. كما يهتم ببعض الأشجار والشجيرات والمزروعات في الأندلس التي استخدمت في حل الكثير من المشاكل الصحية في العصر الوسيط. كما يعرض أهم الخلطات النباتية واستخداماتها العلاجية ببلاد المغرب الإسلامي والأندلس ما بين القرنين 4-6هـ/10-12م.

1. في بلاد الأندلس

أشار الجغرافي العُمري في كتابه **المسالك** إلى أهم المنتجات النباتية وإسهاماتها في التغذية بالأندلس، فقال: "...وأما عن بر العدوة -بلاد الأندلس- فيها من أرزاق الحبوب: القمح والشعير والحمص والفول والعدس والذرة والدَّخْن والسُّلت،... وبها أنواع من الفواكه المستطابة اللذيذة المتعددة الأنواع والأجناس، من النخل والعنب والتين والرمان والزيتون والسفرجل والتفاح على أصناف والكمثري كذلك، ويُسمى ببر العدوة الإنجاص كما يُسمى بدمشق، والمشمش والعين والبرقوق والقراسيا والخوخ غالب على ذلك عدة أنواع، وأما التوت فقليل، وبها الجوز واللوز، ولا يوجد بها الفستق والبندق إلا ما كان مجلوبًا." (1)

وبناءً على شهادة الجغرافي العُمري، صاحب كتاب المسالك، يحق لنا أن نتساءل: ماهي أشهر النباتات الطبية والعطرية التي وُجدت ببلاد الأندلس؟ وفيما تمثّلت استخداماتها وفوائدها الطبية العلاجية؟

من أهم النباتات الطبية والعطرية ببلاد الأندلس نجد:

- **إبرنج:** قيل إنه حب يشبه الجلبان، وقيل إنه يشبه حب الأكرنب، ولونه أحمر. والصحيح أنه في قدر حب الآس الصغير، مرقّط بسواد، مُرّ الطعم، لا رائحة له، وهو كثير بالأندلس. قال النباتي أبو خير الإشبيلي (ق. 6هـ/12م): "... وقفت عليه -بالأندلس- وله ورق يشبه ورق لقبيني، يمتد على الأرض حبالًا، ونوره أسمانجوني، جميل المنظر، في لون اللازورد، يخلفه حب أملس" [1].

- **أحيرش:** نبات ينبت بناحية قرطبة، يشبه الطحلب إلا أن فيه خشونة. إذا جف عنه الماء صار كالتراب، أدكن اللون، وقد يوجد ملتصقًا بالحجارة التي تحت الماء كأنه طحلب. من فوائده الطبية أنه عندما "يُجمع ويُجفّف يُستعمل في جلاء الوجه وتحميره وإلهابه، وإن أكثر منه قرَّح" [1].
- **أسارون:** من جنس اللبلاب، له أغصان رقيقة ترتقي في الأشجار وتتعصب عليها وتتعلق بها، ورائحته كرائحة النسرين، وطعمه مُرّ شديد المرارة يلذع السان بمرارته. منابته في الجبال المكللة بالشجر، وأجوده ما جلب من الصين وبعده الأندلسي، وخيره ما جمع بناحية الجزيرة الخضراء. من فوائده العلاجية أنه "مدرٌّ للبول والطمث، صالح لمن به عرق النسا، مفتح مسكّن للأوجاع الباطنية كلها، ملطف محلل، نافع من صلابة الطحال، مقوّ للمثانة والكلية، وإذا اكتحل به نفع من غُلظ القرنية، وإذا شُرب بعسل زاد في المني، وإذا شرب منه سبعة مثاقيل بماء العسل أسهل مثل الخربق الأبيض، وإذا دُقّ وعُجن بحليب وضُمّد به بين الوركين هيّج الباءة وأنعظ" [8].
- **بلوط:** من جنس الأشجار العظام، شوكي الورق، وله أنواع كثيرة. من أنواعه الشَّاهِبَلوط، وهو القسطل، وليس من نبات بلاد المغرب، وإنما هو نبات عدوة الأندلس ومنها يُجلب إلى المغرب. من استعمالاته العلاجية أنه: "مانع من سعي القُلاع والقروح الساعية إذا أُحرق واستُعمل، نافع من رطوبة المعدة ومن نفث الدم، ورق البلوط إذا سُحقت ونُثرت على الجراحات ألزقتها، عاقل للبطن، نافع من السحج وقروح الأمعاء. ولحم الشاهبلوط جيد للسموم، ولحم البلوط نافع من كثرة البول" [8].
- **بندق:** من جنس الأشجار، وينبت في عدوة الأندلس، ويُعرف بالجلوز. من استخداماته العلاجية أنه: "نافع من النفث الحادث من الرئة والصدر، وإذا سُحق وشُرب بماء العسل نفع من السعال المزمن، وإذا أُكل مع التين والسذاب نفع من لدغ العقارب، وإذا قُلي مع شيء يسير من الفلفل أنضج النزلة" [8].
- **قراسيا:** وهو من جنس الأشجار العظام، وهو في الأصل حبّ الملوك البري. ينتشر بكثرة في ناحية جيّان وقرطبة، ويوجد الكثير منه في منت بيرو وجبال الجزيرة الخضراء. من فوائده الطبية أن: "ثمره يلين البطن" [1].

هذه بعض النماذج الدالة على وفرة النباتات والطبية والعطرية ببلاد الأندلس. وللإشارة، فقد وُجد الكثير منها، ولكن تجنّبًا للاستطراد، فضّلت إدراجها في الهوامش. (2)

2. أهم الخلطات النباتية واستخداماتها العلاجية ببلاد المغرب الإسلامي والأندلس ما بين 4-6هـ/10-12م

اهتم أطباء المغرب الإسلامي والأندلس بالنباتات الطبية اهتمامًا بالغًا، واستعملوها في علاج أمراض عديدة، وذلك من خلال وضع جملة من العلاجات التي امتازت بها عن غيرها، حيث اختص كل منها بعلاج عضو معين من الأعضاء. وبالتمعن في قسم الأدوية والخلطات الدوائية، نجد أنها تشمل عدة أصناف منها:

- **المراهم:** كانت تُصنع من الشمع والزيوت النباتية بعد إضافة بعض المركبات، ومنها:

أ- مرهم دقيق الترمس لعلاج القولنج: يتكوّن من مقدار جزء من دقيق الترمس وحبّ الرند، يُسحق مع مرارة البقر، ثم تُخلط هذه المكونات وتُعجن وتُوضع على الموضع [5].

ب- مرهم الخبيز البستاني لعلاج ورم الحمرة: يتكون من مقدار من الخبيز، يُوضع على حرق النار، ويُستعمل بطبخ الخبيز ودقّه دقًّا ناعمًا، ثم يضاف إلى الأدوية السابقة بعد خلطه بالزيت [5].

ج- مرهم مرداسنج لعلاج القوباء والجرب: يتكون من مقدار درهمين من القسط المُرّ، وأسفيداج، وصندل أبيض، وورد عراقي مسحوق، وزراوند، وكندس، وكركم، ومقدار ثلاثة دراهم من الشعير ودقيق الباقلاء، ومقدار عشرة دراهم من الميعة السائلة. تُسحق جميع المكونات وتُلت بخلٍّ مخمّر، ثم يُضاف إليها دانقين من الكافور، وخمسة

دراهم من الشمع الأبيض، وعشرون درهمًا من دهن الورد العراقي، وتُذاب مع المكونات السابقة لتصبح مرهمًا، ويُوضع على الموضع [5].

د- مرهم الأسفيداج لعلاج القروح المتولدة في الجسد: من مكوناته: مقدار خمسة مثاقيل من الكركم، وأسفيداج، والمرتك والسيلقون واقليميا الفضة، والخل وبياض البيض وعشرة مثاقيل من عصير البزر قطونا، تسحق جميع المكونات مدة ساعة ويضاف إليها دهن الورد بعد سحقه لساعة لتصبح مرهما، ويوضع على الموضع. (3)

- **الضمادات:** تتكوّن من خلط بعض المواد مع سائل مائع مثل الماء أو العسل أو الدهن، ومن أمثلتها:

أ- ضماد طبيخ الإجاص أو الزعرور أو الريحان: يفيد في علاج اشتعال المعدة، ويقطع العطش. وأما طريقة استخدامه، فيُخلط ماء طبيخ أحد المكونات السابقة مع مقدار من دقيق الخَشْكار، ويُجعل في برمة، ثم يُطبخ يسيرًا حتى يُصبح ضمادًا، ويلزم فم المعدة [5].

ب- ضماد لعلاج الدود في البطن والحيات: لتحضيره، يُؤخذ دقيق الشعير ويُجعل في برمة، ثم يُضاف إليه التُرمس المدقوق أو الشيح أو الأفستين، ثم يُضاف إليها الخل الحاذق، وتُطبخ جميع المكونات طبخًا ناعمًا، ثم تُوضع فوق الأدوية وتُخلط معًا، وتُستعمل فوق السرة [5].

ج- ضماد لعلاج أورام الاستسقاء: لتحضيره، يُؤخذ التين اليابس ويُطبخ بإنعام، ثم يُضاف إليه ورق العرعار، وتُخلط جميع المكونات طبخًا ناعمًا حتى تصبح ضمادًا، ثم تُستعمل فوق البطن مما يلي الكبد [5].

د- ضماد لعلاج لوجع الطحال: لتحضيره، يُؤخذ دقيق الشعير ويُخلط معه عروق الكُبار، ثم يُضاف إليه السكنجبين، وتطبخ معا جميع المكونات طبخًا ناعمًا، وتلزم الطحال [5].

هـ- ضماد لعلاج الأورام الحادة: لتحضيره، يُؤخذ القرع ويُطبخ بالماء ويُدق دقًا ناعمًا، ثم يُضاف إليه دهن الورد، ويُوضع على الورم الملتهب فيسكن حرقته [5].

- **الطلاءات:** تتكون من إضافة الماء إلى بعض المواد، فينتج خليط سائل تقريبًا يفيد في معالجة العديد من الأمراض. ومن أمثلتها:

أ- طلاء لعلاج ضروب الاختلاف أو جري البطن: يتكون من خلط بعض المواد مثل دقيق الشعير والعوسج وقشور الرمان، ثم تُخلط جميع المكونات ويُطلى بها البطن [5].

ب- طلاء لعلاج حرق النار: لتحضيره، يُؤخذ شيء من خرو الحمام، ثم يُشد بخرقةٍ من الكتّان ويُحرق حتى يصير رمادًا، ثم يُخلط بزيت ويُطلى به الموضع فيكون "عجيب النفع" [5].

ج- طلاء لمعالجة البهق والبرص: يتكون من الكبريت الأصفر والنطرون الأحمر وتُخلط بزيت وخل، ثم تُسخن في الشمس ويُطلى بها الموضع [5].

- **الأدهان:** تتكون من الزيوت التي تُستخرج من الأدوية المفردة أو المركبة لمعالجة العديد من الأمراض. ومن الأدهان:

أ- دهن النوى: يُستخدم للوقاية من أوجاع المعدة، كما أنه ينفع من الشقاق، ويتكون من دهن نوى الخوخ أو دهن نوى المشماش أو دهن البيض [5].

ب- دهن لمعالجة تناثر الشعر: يتكوّن من اللادن والأفسنتين ونوى التمر المحرق، حيث تُجعل هذه المكوّنات في خرقةٍ من الكتّان، ثم تُترك في قارورة تحتوي على زيت لعدة أيام، ثم يُدهن بها الرأس [6].

- **اللطوخات:** يتم تحضيرها عن طريق خلط بعض النباتات للحصول على مزيج كريمي يُستخدم في العلاجات الجلدية الخارجية. ومن الأمثلة على ذلك:

أ- لطوخ لمعالجة القولنج: يتكوّن من خلط الفيجن المسحوق مع العسل حتى يصبح كالمخ، ثم يُلطخ به موضع المعدة من الخارج، إذ يساعد على طرد الريح [5].

ب- لطوخ لداء الثعلب (لعلاج تساقط الشعر): يتكوّن من تركيب مثقالين من المواد التالية: الألوفربيون والثافيسيا ودهن الغار، بالإضافة إلى مثقال من الكبريت والخربق الأبيض أو الأسود. تُدق هذه المواد وتُنخل، ثم تُخلط بدهن الغار أو دهن الخروع أو بالزيت العتيق [6].

- **الذرورات:** تُستخدم لإيقاف الجروح والقروح وغيرها، وتتميز بقوامها الناعم المشابه للدقيق. تُحضَّر عن طريق تجفيف بعض المواد وطحنها جيدًا، ولها أنواع عديدة، منها:

أ- ذرور بعد الجراح: يُحضّر من خلط جزء من الأسفيداج والمرداسنج، مع نصف جزء من خبث المر والعفص [6].

ب- ذرور لتطييب رائحة البدن: يتكون من عُشر مثقال من المواد التالية: السعد والساذج والميعة الشامية، وأطراف الآس والساذج بشراب ريحاني، ويُجفف ويُسحق ثم يُطرح عليها الورد وأطراف الآس مسحوقين ويداف بالزعفران وماء الورد ويُخلط بالأدوية السابقة، ثم يُسحق ويُنثر على البدن بعد الاستحمام مباشرة، حيث يعمل على امتصاص العرق ومنح الجسم رائحة طيبة [6].

- **غسولات مفيدة في معالجة الآفات والأمراض التي تصيب الرأس:**

أ- غسول لعلاج الحزاز: يُحضَّر بخلط ماء السلق مع ماء الحلبة، وإضافة حب البطيخ ودقيق مطبوخ في الزيت ولعاب السفرجل والحمص والترمس والباقلاء، وغيرها من المواد. بعد تحضير المزيج، يُوضع على فروة الرأس لمعالجة الحزاز [6].

ب- غسول لتخفيف رائحة العرق: يتكوّن من أربعين مثقالًا من الورد الجاف (الذي لم يتعرض للنداوة)، مع خمس مثاقيل من سنبل الطيب، وثلاثة مثاقيل من المِرْسِت. تُخلط هذه المكونات جيدًا، ثم تُوضع على مواضع التعرق في الجسم لتلطيف الرائحة [6].

الخاتمة

نستنتج مما سبق أن بلاد المغرب الإسلامي والأندلس كانت غنية جدًا بالنباتات والأعشاب الطبية والعطرية، وقد ساعدتها في ذلك عوامل عديدة، منها الرطوبة، والتربة الخصبة، وتوافر المياه. ولا شك أن هذه العوامل ساهمت أيضًا في وفرة هذه النباتات وتنوعها، حيث كانت معظمها نباتات حولية تظهر في فصلي الربيع أو الخريف. كما استُخدمت الأعشاب الطبية كطب بديل للحفاظ على الصحة والوقاية من الأمراض، ومعالجة العديد منها، من خلال الاعتماد على أزهارها وأوراقها وسيقانها.

وقد نبعت عناية أهل المغرب الإسلامي والأندلس بالنباتات من الحاجة إلى الغذاء والمراعي والوقود والدواء والتطيب، إلى جانب استخدامها في بعض الصناعات والحرف، مثل الصباغة والدباغة وغيرها.

كما رصد المقال أنواعًا عديدة من الأوبئة والأمراض التي ساهمت النباتات الطبية في معالجتها في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، ومنها الجدري، وآلام المفاصل، وأمراض المعدة، والحمى، والأورام، والتقرحات، والزكام الشديد، والخوانيق، والبواسير، وأمراض الحلق والأنف والأذن، وأوجاع الأسنان وتساقطها، وداء الثعلب (تساقط الشعر)، وغيرها من الأمراض.

ولم يقتصر أطباء المغرب الإسلامي والأندلس على استخدام النباتات الطبية وحدها في صناعة الأدوية فقط، بل استعانوا أيضًا بمجموعة من المعادن والأحجار التي استخرجوا منها بعض العلاجات، مثل الرصاص، وحجر الآزوريت وغيرها. كما كانت الأدوية لديهم على ضربين: مفردة لا تحتاج إلى تركيب، ومركبة تُضاف إليها بعض المعادن.

ساهم هذا المقال في إلقاء الضوء على بعض تلك النباتات واستخداماتها العلاجية في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس ما بين 4-6هـ/10-12م. وقد تنوعت طرق استخدامها، فاتخذت أشكالًا متعددة، مثل المراهم والأدهان والغسولات

والذرورات والضمادات واللطوخات، مما أسهم في معالجة العديد من المشاكل الصحية في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر الوسيط.

الهوامش

(1) انظر: بورملة خديجة، الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال الكتابات الجغرافية العربية، دورية كان التاريخية، 34، 2016، ص. 95، والعمري شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار -ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب- تحقيق حمزة أحمد عباس، ط1، المجمع الثقافي، ج.4، ص. 194.

(2) انظر: أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج1، ص. 48؛ ج2، ص. 496؛ ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج1، ص. 19؛ ج2، ص. 4؛ ج4، ص. 6.

(3) انظر: ابن الجزار، زاد المسافر وقوت الحاضر، مج 2، ص. 665-666. أشار الطبيب ابن الجزار القيرواني في مقدمة كتابه **زاد المسافر وقوت الحاضر**، إلى أهمية هذا الكتاب بقوله: "... فألّفت أدام الله لنا سلامتك، كتابًا جمعنا فيه عيون ما ذكره أفاضل الأطباء من مكنون علمهم وصحيح تجربتهم ومحصر سرهم في طريق مداواة الأدواء التي تعرض في أعضاء الجسد عضوًا عضوًا من أعلى الرأس إلى القدمين، وسلكت في تأليفه وجمعه مسلكًا بينًا مختصرًا واضحًا مشروحًا مفسرًا لينظر فيه الراغب، ويقتصر عليه الطالب، ويكون تذكرة للعالم الماهر، وزادًا للمسافر إلى البلدان البعيدة التي لا يوجد بها طبيب". وأضاف بعدها قائلًا: "... ذكرتُ في كل باب منه -الكتاب- العلة التي يقصد إلى ذكرها ومداواتها، وأثبت حدها المبين عن طبيعتها ومكانها والسبب الفاعل لها والبرهان الدال عليها، ... ثم قفوتُ ما ذكرت بوحدة العلاجات الجليلة التي تحيط بكل أجزاء المواد الدوائية على المنهاج الطبي والقانون الصناعي". انظر: ابن الجزار، زاد المسافر، مج 1، ص. 54. ويُعد كتاب **قوت الحاضر** موسوعة طبية وصيدلانية نظرًا لوفرة المادة التي أوردها وتحدث فيها عن الأمراض والأعراض والأدوية المركبة والنباتات واستخداماتها العلاجية. وهو مرتب حسب الأدواء والعلل ومُقسم إلى مقالات وأبواب.

رابط الجزء الأول من المقال: https://www.ens-kouba.dz/magazine/pdf/n14/article14-10.pdf

المراجع

[1] أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج1، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

[2] البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، المسالك والممالك، ج.2، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

[3] بلامة مرزاية، عائشة، طرق زراعة واستغلال النباتات الطبية والعطرية بواحات عين صالح في الجنوب الجزائري، مجلة الباحث، المجلد 6، العدد 1، 2014، ص. 287-308.

[4] ابن الجزار، طب المشائخ وحفظ صحتهم، تحقيق فاروق عمر العسلي والراضي الجازي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2009.

[5] ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2009.

[6] ابن الجزار، زاد المسافر وقوت الحاضر، تحقيق محمد سويسي وآخرون، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999.

[7] ابن سينا، أبو علي بن الحسين، القانون في الطب، ج.1، دار صادر، بيروت.

[8] الوزير، أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغساني، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.